معالم الوسطية ومقوماتها في الإسلام

إعداد

د. محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي

أستاذ الشريعة المشارك بقسم القانون الخاص

كلية القانون، جامعة عجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة

موجز عن البحث

تناول البحث مفهوم الوسطية، ومعالمها ومقوماتها في دين الإسلام، وذلك من خلال مبحث تمهيدي، وفصلين، تضمّن المبحث التمهيدي توضيح معنى الوسطية والاعتدال لغة واصطلاحاً، في حين تضمّن الفصل الأول أهم معالم الوسطية التي تميّزت بها الأمة الإسلامية من بين سائر الأمم، وذلك من خلال أربعة مباحث: الأول منها في بيان مراعاة تعاليم دين الإسلام حاجات الروح ومطالب الجسد في آن واحد، والجمع بين مقتضياتهما، والقيام بمتطلباتهما من غير غلوّ أو تقصير، والثاني في بيان التعامل مع متاع الدنيا، والتوازن بين رهبانية طغت على الفطرة الإنسانية، وبين مادية نزلت الى مستوى الحيوانية من غير إفراط أو تفريط، والثالث في بيان احتواء التشريعات للثبات والتطور - الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل، والرابع في بيان المرونة في التعامل مع غير المسلمين، وتوضيح الطريقة المثلى التي اختارها الإسلام للتعامل مع من لا يدينون بدينه، ويعيشون بجوار أتباعه.

وتضمّن الفصل الثاني مقومات الوسطية من خلال مباحث ثلاثة، الأول في بيان وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، والثاني في بيان أهمية العناية بالعلم الشرعي والرجوع إلى العلماء، والثالث في بيان ضرورة لزوم جماعة المسلمين، وبيننا في

النهاية أن الوسطية ليست عقيدة فكرية، ولا منهجا نظريا فحسب، وإنما هي أساساً مهمة تطبيقية، وعملية تنفيذية للتوازن والاعتدال في كل صغير وكبير من شؤون الحياة لتوليد المثالية النموذجية في المجتمع المسلم، ويرتقي المجتمع المسلم دائما كلما كانت الوسطية في أفرادها حية نافذة مطبقة، وإذا تضاءلت آثار الوسطية في مجتمع ما بسبب غياب المقومات أو ضعفها انحدر المجتمع إلى التفكك والانحطاط.

The milestones Of Moderation And Its Components In Islam

Mohammed Wali Allah Abdul Rahman Al Nadwi

Department of Private Law

Faculty of Law, Ajman University - State of United Arab Emirates

Email of corresponding author : bhoiranadwi@hotmail.com

Abstract:

The research dealt with the concept of moderation, and its features and components in the religion of Islam, through a preliminary study, and two chapters, the introductory section included clarifying the meaning of moderation and moderation language and terminology, while the first chapter included the most important milestones that characterized the Islamic Ummah among other nations, through Four topics: the first in the statement of observance of the teachings of the religion of Islam the needs of the soul and the demands of the body at the same time, and the combination of their requirements, and carry out their requirements without excessive or negligence, and the second in a statement dealing with the pleasures of the world, and the balance between the monastic predominance of human nature, and the material revealed To the neighborhood level The vessels of non-excessive Ootaftrat, The third in the statement containing legislation for stability and development - stability in the objectives and flexibility in the means, and the fourth in the statement of flexibility in dealing with non-Muslims, and clarify the best way that Islam has chosen to deal with those who do not believe in his religion, and live next to his followers.

The second chapter included the elements of moderation through three topics, the first in the statement that the book and the Sunnah should sit, the second in the importance of taking care of forensic science and reference to scientists, and the third in the necessity of the necessity of the Muslim community, and finally showed that moderation is not an ideology, not only a theoretical approach It is essentially an operational task, and an operational process of balance and moderation in every small and large issue of life to generate the ideal ideal in a Muslim society. The Muslim community always evolves whenever the centrism in its members is a living window, and if the effects of moderation in a society diminish due to the absence of For the constituents or weakness of society descended into disintegration and degradation.

Keywords: (Milestones, Moderation, Rectifiers, Islam)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على المبعوث
رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم ودعا
بدعوتهم إلى يوم الدين أما بعد؛

فلما كان تقدير العزيز العلام لدين الإسلام الذي بعث به حبيبه وخاتم أنبيائه
ورسله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون خاتم الأديان، وأن يكون متبعا
على وجه الأرض إلى آخر الزمان، أودع فيه من سمات الكمال، وصفات التمام ما
جعله صالحا لكل زمان ومكان، مسائرا لركب البشرية مهما رقت العقول،
وتقدمت المدارك، وتطورت الحياة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

فالدين الإسلامي دين أبدي مادامت السماوات والأرض مستعدّ بصفاته
وسماته وخصائصه لقيادة كوكب الأرض ومن عليه إلى طريق السعادة وبر الأمان
في كل عصر ومصر، قادر على معالجة قضاياهم ومسائلهم، وحل مشكلاتهم
ومعضلاتهم بأحسن وجه، وأيسر سبيل، ومن أهم هذه السمات سمة الوسطية
والاعتدال التي تحافظ على روح الدين، وعلى نشاطه وحيويته وأصالته، وعلى
نقاؤه وصفائه، وتطهره من الإفراط والتفريط، والغلو والتقصير، ولأهمية هذه
السمة وصف الله سبحانه الأمة بها، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٢).

(١) المائدة الآية ٣

(٢) البقرة الآية ١٤٣

فالوسطية هي السمة البارزة في دين الإسلام الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده دستوراً لهم إلى يوم الدين، والذي يضع عن الخلق إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويرشدهم إلى ما فيه سعادة أولاهم وآخرهم.

والناظر المتأمل في التشريعات الإسلامية وأحكامها وشروطها ونظمها جملة وتفصيلاً يُدرك معالم سمة الوسطية وشواهدا وآثارها جلياً في جميع أبوابها من العبادات، والمعاملات، والمعاشرة، والسلوك، والآداب، لو دُرِسَتْ هذه المعالم والآثار، وُجِمِعَتْ ودُوِّنَتْ بكلياتها وجزئياتها دراسة تفصيلية لاحتاج بيانها إلى مجلد.

وفي هذه العجالة ألقى الضوء على بعض هذه المعالم العامة ومقوماتها الهامة مُبيناً بما فيها من جوانب الوسطية والاعتدال، مُقسِّماً إياها على مبحث تمهيدي وفصلين، وهي كالتالي:

المبحث التمهيدي: توضيح معنى الوسطية لغة وشرعا

الفصل الأول: معالم الوسطية، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الجمع بين متطلبات الروح والجسد

المبحث الثاني: التوازن في التعامل مع متاع الدنيا

المبحث الثالث: احتواء التشريعات للثبات والتطور - الثبات في الأهداف

والمرونة في الوسائل

المبحث الرابع: المرونة في التعامل مع غير المسلمين

الفصل الثاني: مقومات الوسطية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الاعتصام بالكتاب والسنة

المبحث الثاني: العناية بالعلم الشرعي والرجوع إلى العلماء

المبحث الثالث: لزوم الجماعة

فما كان في جَمْعِي هذا من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريء.

وأسأل الله تعالى أن يبارك في هذا الجهد المتواضع، وأن يضع فيه النفع والقبول، وأن يضاعف الأجر والمثوبة لكل من سعى لي وأرشدني وهياً لي الأسباب والظروف لإعدادة، وأن يدخره لنا يوم نلقاه، فإنه وليّ ذلك وعليه قادر، وصلى الله تعالى وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

المبحث التمهيدي توضيح معنى الوسطية لغة وشرعا

الوسطية لغة:

جاءت كلمة (وسط) في اللغة بعدة معانٍ، لكنها مُتقاربة في مدلولها.
قال ابن فارس: "وسط" الواو والسّين والطّاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف^(١).

وقال ابن منظور: الوَسْط بسكون السّين ظرف على وزن نظيره في المعنى وهو - بين، تقول: جلست وَسْط القوم، أي: بينهم^(٢). والوَسْط بالفتح اسم لما بين طرفي الشيء، تقول: قبضت وَسْط الحبل، وكسرت وَسْط القوس، وجلست وَسْط الدّار، وتأتي - بالفتح أيضًا - صفة، بمعنى خيار.

وقال الفيروزآبادي: الوَسْط - محرّكة - من كل شيء أعدله^(٣).
وقال الطبري: وأما الوسط فإنه في كلام العرب "الخيار"، يقال: فلان وسط الحسب في قومه، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه^(٤).

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة ٦/١٠٨ ط دار الفكر بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب ٧/٤٢٧، ط دار صادر، بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٣) أبوطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص ٨٧٩ ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ٢/٨، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

الوسطية شرعا:

الوسطية في مفهوم الشريعة العدالة التي تنصف بين الطرفين فلا تجنح إلى أحدهما، بل تكون بينهما باتزان، قال تعالى في وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١) أي عدلا، كما ثبت ذلك مرفوعا من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: "يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، والوسط العدل"^(٢).

قال الطبري رحمه الله تعالى: الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، قال: وأرى أن الله تعالى إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"^(٣).

(١) البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه" (ح ٣٣٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "والوسط العدل" مرفوع من نفس الخبر، وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ١٧٢.

(٣) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ٨/ ٢.

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى: "وسطاً" معناه عدولاً، روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتظاهرت به عبارة المفسرين^(١).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١﴾ إنما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجود^(٢).

وقال الماوردي رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

الأول: يعني خياراً، من قولهم فلان وسط الحسب في قومه، إذا أرادوا بذلك الرفيع في حسبه.

والثاني: الوسط من التوسط في الأمور، لأن المسلمين تَوَسَّطُوا في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، كاليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم، فوصفهم الله تعالى بأنهم وسط، لأن أحب الأمور إليه أوسطها.

والثالث: يريد بالوسط: عدلاً، لأن العدل وسط بين الزيادة والنقصان^(٣).
والتأويلات الثلاثة متقاربة متلازمة تدور حول معنى العدالة والخيرية والاتزان.

(١) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأنلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ٣٦٧، ط دار الخير بيروت ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٠، ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، النكت والعيون ١/ ١٩٨، ط دار الكتب العلمية بيروت.

الفصل الأول معالم الوسطية

الوسطية سمة هذه الأمة ومزيتها التي ميزها الله تعالى بها على غيرها، وبفضلها تبوأَت الأمة لمنصب أداء الشهادة على الآخرين وأن يشهد لها الرسول الكريم عليه أفضل وأتم التسليم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

فوسطية أمة سيد الأنبياء عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام خاصية أساسية وحالة محمودة تدفعها للالتزام بهدي الإسلام دون انحراف عنه، أو تغيير فيه عقيدة وشريعة ونظاماً خلقياً واجتماعياً وغيره، فالأمة عدلٌ ووسطٌ بين متناقضين، بين الإفراط والتشدد، وبين التفريط والتساهل.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: "وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم"^(٢). وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: "ستكم والله الذي لا إله إلا هو - بينهما: بين الغالي والجافي" فاصبروا عليها^(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهى الإفراط، ولا يبالى بأيهما ظفر: بزيادة أو نقصان"^(٤).

(١) البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة، باب لزوم السنة (ح ٤٦١٢).

(٣) أخرجه الدارمي في مقدمة سننه، باب في كراهية أخذ الرأي (ح ٢٢٢).

(٤) شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين ص ٣٠٢، ط مؤسسة

الرسالة بيروت ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: " لما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١) ".

ولهذه الوسطية التي تشرفت بها هذه الأمة معالم كثيرة نورد فيما يلي أهمها في أربعة مباحث:

(١) الحج: الآية ٧٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٠.

المبحث الأول الجمع بين متطلبات الروح والجسد

خلق الله تعالى الإنسان مُركَّباً من روح وجسدٍ، وأودع في كل منهما مقتضياته ومتطلباته، وراعى في تعاليم دينه - دين الإسلام - حاجات الروح ومطالب الجسد فجمع بين مقتضياتهما، ووازن بين متطلباتهما، وسدَّت حاجاتهما في آن واحد، وأعطى للروح حقَّها وللبدن حقه، من غير إفراط

أو تفريط، ووجه أتباعه بالاعتناء بهما بحيث لا يَطغى فيها جانبٌ على جانب آخر، أو لا يُغفل جانب بسبب الاهتمام الزائد بجانب آخر.

فقال تعالى في صفة المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢).

فالإسلام يهذب الغرائز كلها ولا يتجاهلها، ويجعل المنهج بينهما قواماً، وقد ربَّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على هذا التوسط والاعتدال والتوازن الدقيق والمنهج السليم الدائر بين المنع من إهمال إشباع الغرائز، أو التسبب والإغداق في إشباعها.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال لي

(١) المومنون: الآية ٥-٦.

(٢) الجمعة: الآية ٩-١٠.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟، فقلت: بلى يا رسول الله. قال: "فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإذا ذلك صيام الدهر كله"^(١).

وجاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر!! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم ينكر على كل من يجده من أصحابه منحرفا عن هذا المنهج السوي من الاعتدال والتوازن، فكان صلى الله عليه وسلم مرة في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه أن اخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم (ح ١٩٧٥)، ومسلم في صحيحه كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرربه.. (ح ١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (ح ٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (ح ١٤٠١) عن أنس بن مالك

رضي الله تعالى عنه.

ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خير من أن يأتي أحدكم ثائر الأس كأنه شيطان"^(١).

وفي حديث سيدنا جابر رضي الله قال: أتانا النبي صلى الله عليه وسلم فرأى رجلاً ثائر الرأس فقال: "أما يجد هذا ما يسكن به شعره"^(٢).

وبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم (أي في الشمس)، فسأل عنه، فقالوا: نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مروه فليتكلم وليستظل وليقعد، وليتم صومه"^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: "خذوا من الأعمال ما تطيقون"^(٤).

والسرُّ في ذلك أن التغاضي عن مطالب الجسد وترويضه وإيقاعه في المشاق بلا مصلحة دينية أو غرض مشروع يُعدّ من العبث والإساءة، فليس للشارع أي مصلحة

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الشعر، باب إصلاح الشعر عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وهو مرسل صحيح السند، وله شاهد من حديث جابر أخرجه أبو داود والنسائي بسند حسن، فتح الباري ١٠/٣٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخلجان (ح ٤٠٦٢)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الزينة، باب تسكين الشعر (ح ٥٢٣٦) وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (ح ٦٧٠٤) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (ح ١٩٧٠)، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته.. (ح ٧٨٥) عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

في إهمال الجسد وتعذيبه وإيذائه، بل المصلحة في حفظه ورعايته وعنايته، ليتمكن المكلف من التحقق لحاجات الروح ومطالب الجسد، ويقوم بالعبادة وصالح الأعمال وأداء الحقوق على الوجه المطلوب.

فلا يكتمل إسلام المسلم إلا باجتناب التعنت والتشدد على النفس، وباجتناب الغلو والتنطع في الدين، وكذا باجتناب الانفلات في المعاصي واتباع الهوى، وباجتناب التقصير في أحكام الدين، والتفريط في فرائضه ولوازمه، وهذه هي الوسطية التي تتلخص في الصراط المستقيم الذي يطلبه المسلم في كل ركعة من صلاته ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، وأمرنا به رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال: " قل: آمنت بالله ثم استقم "^(٢).

(١) الفاتحة: الآية ٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (ح ٣٨) عن سفيان بن عبد الله الثقيفي رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثاني التوازن في التعامل مع متاع الدنيا

موقف الإسلام تجاه المال ومتاع الدنيا موقف وسط متوازن بين إفراط وتفریط، فمن جانب اعتبر الإسلام المال سبباً لقيام المجتمع، فلا ينهض المجتمع ولا يتقدم الكون إلا بالمال: فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(١)، واعتبره مدداً لابن آدم، فقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾^(٢)، واعتبره زينة: فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣)، واعتبره سبباً للتفضيل: فقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٤)، وفضله بنسبته إليه: فقال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(٥)، ومدحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقال: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"^(٦)، وأمر بالحفاظ عليه فقال عليه الصلاة والسلام: "من قتل دون مال فهو شهيد"^(٧)، وقال لأبي لبابة رضي الله تعالى عنه: "أمسك

(١) النساء: الآية ٥.

(٢) الإسراء: الآية ٦.

(٣) الكهف: الآية ٤٦.

(٤) النساء: الآية ٣٤.

(٥) النور: الآية ٣٣.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ١٩٧/٤، والبخاري في الأدب المفرد (ح ٢٩٩)، والحاكم في مستدركه ٢٣٦/٢، عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الديات، باب في من قتل دون ماله فهو شهيد، (ح ١٤١٨) عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

عليك بعض مالك، فهو خير لك" ^(١)، وقال لسعد رضي الله تعالى عنه: "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" ^(٢).

ومن جانب آخر اعتبر الإسلام المال فتنة: فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: "إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال" ^(٤)، واعتبره كذلك عذاباً لصاحبه: فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ^(٥)، واعتبره لا يفيد صاحبه عند الله: قال تعالى: "لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً" ^(٦).

فالمال نعمة من الله تعالى، وحفظه من مقاصد الشريعة الكلية، وأحد الضروريات الخمس بشرط أن يجعله الإنسان وسيلة لا غاية، وأن يتقي الله في كسبه وإنفاقه، وأن يتخذ ذريعة لآخرته، وأن يتجنب طغيانه وشره، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب إذا تصدق أو وقف بعض رقيقه ودوابه فهو جائز (ح ٢٧٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (ح ٢٧٦٩) عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففه الناس (ح ٢٧٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (ح ١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه.

(٣) الأنفال: الآية ٢٨.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة المال (ح ٢٣٣٦) عن كعب بن عياض رضي الله تعالى عنه، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) التوبة: الآية ٥٥.

(٦) المجادلة: الآية ١٧.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١)، وقال تعالى مُثْنِيًّا عَلَى مَنْ يَدْعُو بِالْجَمْعِ بَيْنَهُمَا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢)، وَبَيَّنَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا فِلسَطُهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ"^(٣).

فجاء دين الاسلام وسطاً بين رهبانية طغت على الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية، واعتبرت المال سبباً للنقمة والشقاء والبُعد عن رب الرض والسماء، كما هو الحال عند بعض أهل الملل الذين آثروا الفقر والتقشُّفَ، وهَجَرُوا الْمَالَ وَمَتَاعَ الدُّنْيَا، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَاقُوا أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ الْجَسَدِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِهَدَفِ السُّمُوِّ الرُّوحِيِّ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ إِنْكَارًا شَدِيدًا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) القصص: الآية ٧٧.

(٢) البقرة: الآية ٢٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (ح ٧٣)، ومسلم في صحيحه، صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.. (ح ٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(٤) الأعراف: ٣٢.

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(٢) وبين مادية نزلت الى مستوى الحيوانية، واعتبرت جمع المال ومتاع الدنيا هدف الحياة، كما هو الحال عند بعض الناس الذين عبدوا المال وعظموا المادة، وزعموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو، والسعادة لا تتحقق إلا بجمع الدراهم والدنانير، فأنكر عليهم الإسلام إنكارا شديدا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى*وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش"^(٤).

فالإسلام يلبي متطلبات الحياة الدنيا، ومقتضيات السعادة في الدار الآخرة دون إفراط في جانب أو تفريط في جانب آخر، بل يجب إعطاء كل ذي حق حقه، حتى تكتمل الفرحة وتتم السعادة، وأسعد الناس من هو سعيد في الدنيا والآخرة.

(١) المائدة: الآية ٨٧.

(٢) الحديد: الآية ٣٧.

(٣) النازعات: الآية ٣٧-٣٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (ح ٢٨٨٧) عن أبي

هريرة رضي الله تعالى عنه.

المبحث الثالث

احتواء التشريعات للثبات والتطور الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل

من خصائص دين الإسلام الذي ختم الله به الأديان والشرائع أنه يجمع بين عنصر الثبات والاستقرار، وعنصر التطور والمرونة، فهو ليس نظاماً صلباً جامداً مُتَحَجِّراً لا تتحرك ولا تَلِين، ولا نظاماً مَرِنًا متفلّتا متقلّبا يتغير ويتبدل جملةً وتفصيلاً، بل هو نظامٌ دائرٌ بين الثبات والتطور، ثابتٌ في أصوله ومصادره، وأهدافه وغاياته، ومتطورٌ في معارفه وأدواته، وفي أساليبه ووسائله، وفي فروعهِ وجزئياته، وذلك لأن الحياة البشرية في تغيُّرٍ وتطوُّرٍ مستمر، وأن أحوال الناس وظروفهم وأوضاعهم في قلب وتبدُّلٍ دائم، فجاء نظام الإسلام على نسقٍ يُواكب ركبَ البشرية، والحياة المعاصرة، ويَصْلُحُ لتوجيه الناس وإرشادهم وقيادتهم في كل زمان ومكان على مرِّ العصور والدهور.

فجانب الثبات في دين الإسلام يتجلى في حقائق ثابتة لا تتغير ولا تتبدل مهما تقدّمت المعارف، وتطوّرت الحياة، لأن التغيُّر فيها يستلزم انخرام الدين واختلال الشريعة، ومن هذه الحقائق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعبادات بجميع أنواعها، والقيم والأخلاق بمختلف صنوفها، والمقاصد الشرعية العامة، والكليات الخمس الضرورية من حفظ الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال، والمصادر النصية الأساسية من الكتاب والسنة، وفي الأحكام الاجتماعية التنظيمية من الزواج والطلاق والمواثيق والحدود، وفي المحرّمات القطعية من قتل النفس، والسحر، والفاحشة، وأكل

الربا، والسرقه ، والغيبه والنميمة وغيرها.

فهذه كلها أمورٌ ثابتةٌ لا تتغير ولا تبدل، نزل بها القرآن الكريم، وتواترت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الأمة، فليس من حق أي إنسانٍ أو جهةٍ أن يُغيّر أو يُلغي أو يُعطّل شيئاً منها، لأنها كليات الدين وقواعده وأسسُه.

ولما أراد الإنسان أن يُحوّل هذه الثوابت إلى متغيرات ومتطورات كانت النتيجة ما نراه من تحلل أخلاقي، وجرائم متفشية، وفوضى جنسية، ودمار أخلاقي واجتماعي شامل، وأمراض فتّاكة، والواقع خير شاهدٍ عليه^(١).

وأما جانب التطور في دين الإسلام فتتجلى في الفروع والجزئيات التي لم يرد فيها نصٌ إطلاقاً، وفي المصادر الاجتهادية التي اختلفت فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها مثل الاستحسان، والمصالح المرسلة، وسدّ الذرائع، والعرف وغير ذلك، وفي مجال السياسة الشرعيّة، وفي أحكام المعاملات المالية والتجارية التي من شأنها التغيّر والتجدّد، وفي الوسائل والأساليب التطبيقية لبعض المبادئ العامة كمبدأ الشورى، ومبدأ إقامة العدل والتعزير، ومبدأ الإيجاب والقبول، والاستلام والتسليم في صنوف العقود، فتطبيق هذه المبادئ لا يستقرُّ على أسلوبٍ ثابتٍ، أو شكلٍ دائمٍ، فكلُّ أسلوب يُحقّق المقصود يُعتبر مقبولا شرعا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"الأحكام نوعان: نوع لا يتغيّر عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة

(١) انظر: د. يوسف القرضاوي، الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ١٩، ود. ماجد أبو رحية

ورفقتة، محاضرات في نظام الإسلام ص ١٥-١٦.

والأمكنة ولا اجتهد الأئمة، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهد يُخالف ما وُضِعَ عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإنَّ الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة^(١).

فأحكام الإسلام وتشريعاته ليست حركةً مُطلَقةً، وليست ثباتاً مستديماً، بل هي مزيجٌ بين الثبات المُتَّسِم بالأصالة، والرسوخ المتصف بالنصيَّة، وبين التطور المنضبط بحدود، والمرونة المقيَّدة بأصول، وهذه الخصوصية والوسطية هي التي حصَّنت الإسلام من الانهيار والزوال، والفناء والانمياح والذوبان، كما ضَمَّنَتْ له قدرته على مُسايرة المُستجَدَّات، واحتواء الطوارئ والنوازل ومعالجتها بما يُسعد البشرية، وضَمَّنَتْ للمجتمع المسلم أن يعيش ويستمر ويرتقي.

(١) شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ١/ ٣٣٠ ط مكتبة المعارف الرياض.

المبحث الرابع المرونة في التعامل مع غير المسلمين

الطريقة المثلى التي اختارها الاسلام للتعامل مع من لا يدينون بدينه، ويعيشون بجوار أتباعه لطريقة مَبْنِيَّةٌ على أصليين ثابتين، ومبدئين أساسيين يُكوِّنان الوسطية في تعامله تجاههم، ويكفلان الاعتدال في التعايش معهم، وهما:

- ١ - مبدأ الأخلاق بجميع معانيه مع الصلابة في الدين، وترك المداهنة.
- ٢ - معاقبتهم عند الاعتداء على حرمت الدين مع الالتزام بالعدل، ومجانبة الجور والعدوان.

والمتتبع لنصوص الكتاب والسنة، والسيرة النبوية العطرة يجد جلياً، ويلمس عياناً انعكاسات هذين الأصلين في كثير من الأوامر والتوجيهات، والحوادث والواقعات، ودونك بيان بعض من ذلك وتفصيله.

أما المبدأ الأول فقد تَضَمَّنَه كثيرٌ من نصوص القرآن والسنة، ووقائع السيرة العطرة على صاحبها الصلاة والسلام منها:

- ١ - قوله تعالى في الحث على برِّ الوالدين وإن كانا كافرين: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١).
- ٢ - عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قُلْتُ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وهي راغبة، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قال: "نعم، صِلِي أُمَّكَ"^(٢).

(١) لقمان: الآية ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين (ح ٢٦٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، والزوج، والأولاد، والوالدين ولو كانوا مشركين (ح ١٠٠٣).

٣ - قوله تعالى في حسن التعامل مع غير المسلمين حال كونهم مسالمين:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(١).

٤ - قوله عليه الصلاة والسلام في بيان حُرمة الاعتداء على المُعاهدين الذين

يعيشون بين المسلمين: " من قتل معاهداً لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن رِيحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " ^(٢)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذَ منه شيئاً بغير طيبِ نفسٍ منه، فأنا حجيجه يوم القيامة " ^(٣).

٥ - جاء ثمامة بن أثال أسيراً فأحسنَ صلى الله عليه وسلم أسرَه، وأنعم عليه،

وبذل له من دَمائِهِ أخلاقه ما جعله ينشر صدره للإسلام فأسلمَ وتشهدَ^(٤).

٦ - كان الرسول عليه الصّلاة والسّلام يبرّ المعاهدين، ويزور مريضهم، فعن أنس

بن مالك رضي الله عنه قال: (كان غلامٌ يهودي يخدم النبي صلى الله عليه

(١) الممتحنة: الآية ٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (ح ٣١٦٦)

عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما.

(٣) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا

بالتجارات (ح ٣٠٥٢) عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وحسنه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه "موافقة الخبر الخبر" ٢/ ١٨٤، ط مكتبة الرشد

الرياض ١٤١٩.

(٤) راجع للتفصيل صحيح البخاري كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة (ح ٤٣٧٢)، وصحيح مسلم

كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه (ح ١٧٦٤).

وسلم ، فمرض ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعودُه ، فقعَد عند رأسه ، فقال له: أَسْلِمَ ، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أَطْعَ أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ، فَأَسْلَمَ ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ"^(١).

هذا وغيره كثير مما يدل على حُسْنِ تعامله صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين ، فكان يحضر ولائهم ، وَيُحَسِّنُ إلى محتاجهم ، وَيَعْقِدُ معهم أنواعَ المعاملات من البيع والشراء والاستئجار والاقتراض وغيره .

كَلْ ذَلِكَ مع صِلَابَةِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالدين بعيدا عن المجاملة والمداهنة . فلما جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتّه ، فقال: يا محمد أبيع الله هذا بعدما أَرَمَ ؟ فَقَالَ: "نعم ، يبعث الله هذا ، وَيُمِيتُكَ ثم يُحْيِيكَ ثم يُدْخِلُكَ نارَ جهنم"^(٢) ، قال: فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٣) إلى آخر السورة .

ولما قدم وفد نصارى نجران المدينة جعلوا يُجادلون في نبي الله عيسى عليه السلام ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية ، وقد تصلّبوا على باطلهم ، بعدما أقام عليهم النبي صلى الله عليه وسلم البراهينَ بأنه عبدُ الله ورسولُه ، فأمره

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام (ح ٣١٦٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٤٢٩/٢ ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) يس: الآية ٧٧ .

الله تعالى أن يُباهلهم، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبنائهم، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فأحضر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، وقال: "هؤلاء أهلي"، فتشاور وفد نجران فيما بينهم، هل يجيئون إلى ذلك؟ فاتفق رأيهم أن لا يجيئوه، لأنهم عرفوا أنهم إن باهلوهم هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة، فأجابهم صلى الله عليه وسلم لذلك^(١).

ولما جاء ابن النواحة وابن أثال رسولاً مسيلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال لهما: أتشهدان أنني رسول الله؟ قالوا: نشهد أن مسيلاً رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آمنت بالله ورسله لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما^(٢).

وقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وقال تعالى مخاطباً المكلفين من الأمة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٤).

(١) راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٩، وتفسير السعدي ١/٩٦٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/٣٩٦ عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وحسنه المحدث أحمد

شاکر في تحقيق المسند (ح ٣٧٦١).

(٣) الأنعام: الآية ٦٨.

(٤) النساء: الآية ١٤٠.

وبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه أنه خاذله ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته"^(١).

وأما المبدأ الثاني فقد بينه أيضا كثير من النصوص ووقائع السيرة النبوية العطرة، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢).

٢ - ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾^(٣).

٣ - ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾^(٤).

(١) راجع: أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوة لابن هشام ٤٦/٣ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) البقرة: الآية ٢١٧.

(٣) النساء: الآية ٩١

(٤) التوبة: الآية ١٢

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم تعامل مع أسرى بدر برفق وإحسان وأطلق سراحهم بعد أخذ الفداء عنهم، إلا الاثنين منهم فقد قتلهما النبي صلى الله عليه وسلم صبرا، وهما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط لما كان لهما من سوابق في الاعتداء على حرمة الدين^(١).

كما أجلي يهود بني النضير^(٢)، وقتل يهود بني قريظة^(٣)، لما صدرت عنهم من الخيانة والاعتداء بعد ما عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاهم الأمان، وسنّ لهم من الأحكام ما يضمن سائر حقوقهم.

وكذا في فتح مكة أعلن بالصفح عنهم، إلا ستة رجال وثلاث نسوة ممن كانت لهم سوابق في الاعتداء على حرمة الدين^(٤).

وكانت المعاقبة للمعتدين مقيّدة بالموضوعية والعدل بعيدا عن التشفي والظلم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٦)، وقال

(١) راجع للتفصيل: البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣٧٢، الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ٢٢٨.

(٢) راجع: زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٧٢ فما بعدها.

(٣) راجع: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي ٣/ ٨ - ٢٥.

(٤) راجع: فتح الباري ٨/ ١١ - ١٢، الروض الأنف ٤/ ٩٢ - ٩٣.

(٥) المائدة: الآية ٨

(٦) النساء: الآية ٥٨

تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(٢).

وأنكر صلى الله عليه وسلم على سيدنا أسامة بن حارثة رضي الله تعالى عنهم لما خرجت العقوبة عن الموضوعية، فقتل كافرا محاربا بعد ما تشهد، حيث قال زاجر له "هلا شققت عن قلبه"^(٣).

خلاصة القول أن هذه الوسطية في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين هيأت جواً رائعاً للتعايش السلمي بين جميع الفئات التي كانت تقطن المنطقة حينها على اختلاف عقائدهم، ونزعاتهم، وميولهم مع علو كلمة التوحيد، ورفعة وعزة في نفوس أهلها.

(١) البقرة: الآية ١٩٠

(٢) الأنفال: الآية ٥٨.

(٣) والقصة في صحيح البخاري كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (ح ٤٢٦٩)، وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (ح ٩٦) عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة، فصباحنا القوم على مياههم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناها، قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وطعنته برمحٍ حتى قتلتها، فلما قدمنا المدينة، بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، فقال: أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

الفصل الثاني مقومات الوسطية

بيّنّا في الفصل الأول أن الوسطية تعني الاعتدال والتوازن، والتزام قاعدة " لا إفراط ولا تفريط " أو " لا غلو ولا تقصير " في جميع أمور الحياة، وشؤونها، وقضاياها: توازن بين الروح والجسد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الثابت والمتغير، وبين القديم والجديد، وبين النقل والعقل، وبين الدين والدولة، وبين المقاصد والوسائل، وبين الفرد والجماعة وغيره.

والوسطية ليست عقيدة فكرية، ولا منهجاً نظرياً فحسب، وإنما هي أساساً مهمة تطبيقية، وعملية تنفيذية للتوازن والاعتدال في كل صغير وكبير من شؤون الحياة لتوليد المثالية النموذجية في المجتمع المسلم.

ويرتقي المجتمع المسلم دائماً كلما كانت الوسطية في أفرادهِ حية نافذة مطبقة، وإذا تضاءلت آثار الوسطية في مجتمعٍ ما بسبب غياب المقومات أو ضعفها انحدر المجتمع إلى التفكك والانحطاط، وفيما يلي نبين بعضاً من أهم المقومات التي تحافظ على الوسطية، وتضمن بقائها في مباحث ثلاثة.

المبحث الأول الاعتصام بالكتاب والسنة

اعتنى الإسلام في جميع تشريعاته بأن تكون في وسع المكلفين وقدر طاقتهم ليتمكنوا من القيام بأدائها بكل نشاط وحيوية وجدية، وبصفة دائمة مستمرة، ومن غير عنّت ومشقة زائدة، فاختار منهج الوسطية في جميع أوامره وتكليفاته، وحثّ أتباعه على التزام الاقتصاد والاعتدال في جميع شؤون حياتهم، حتى لا يكون عليهم حرج حال التنفيذ والتطبيق، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢)، وركّز على مجانبة الغلو والتشدد، والتنطع والتعمق في العادات والعبادات، والحركات والسكنات، فقال صلى الله عليه وسلم: "إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه"^(٣).

يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "قد علمنا من موارد الشرع ومصادره، أن مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المرّ، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء"^(٤).

(١) البقرة الآية ٢٨٦

(٢) المائدة الآية ٦

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم (ح ٢١٢)، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل (ح ٧٨٦) عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ٣١

فكان من هَدي النبي صلى الله عليه وسلم التوسط والاعتدال في جميع أمور حياته، واعتبر ذلك سُنَّته المتبعة، فقال للرهط الثلاثة الذين قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فقال صلى الله عليه وسلم: "لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"^(١). وبَيَّن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن ذلك كان سُنَّته صلى الله عليه وسلم حتى في ممارسته العملية للعبادات فقال: كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً"^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم يُنكر على من يُجانب الوسطية والقصْد، ويسلك درب الغلو والتشدد فقال: "الدين يُسر ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه"^(٣)، واعتبر الاستمرار على التشدد والتعمُّق عصياناً فقال صلى الله عليه وسلم: "أولئك العصاة"^(٤)، وأخبر أن مصيره هلاك ودمار، فقال صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون"^(٥)، وأرشد إلى أسلوب السلامة ودرب السعادة فقال عليه الصلاة

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة وخطبته (ح ٨٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ... (ح ٣٩) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية (ح ١١١٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (ح ٢٦٧٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

والسلام: "خذوا من الأعمال ما تطيقون"^(١)، وقال: "سدّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا"^(٢).

فهذه النصوص من الكتاب والسنة تأخذ بيد كل من يتمسك بها إلى درب السلامة وطريق الوسطية، إذ أن الانحرافات في الفكر والسلوك لا تحدّث في أفراد الأمة شبابا وكهولا إلا بمخالفة الكتاب والسنة، وعلاجها ومُقومها العودة إلى الكتاب والسنة، والاعتصامُ بهما، والعمل بمقتضاهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد تركت فيكم ما إن اعتصم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله، وسنة نبيه^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه (ح ٥٨٦١)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (ح ٧٨٢) عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل (ح ٦٤٦٣) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٩٣/١ عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وصحّحه ووافقه الذهبي.

المبحث الثاني العناية بالعلم الشرعي والرجوع إلى العلماء

لا يختلف اثنان من أهل العدل والإنصاف في أهمية العلم، لاسيما العلم الشرعي لأنه أساس الوصول إلى صحّة الاعتقاد وتمام العبادات، ومن خلاله يعرف المسلم ما يجب وينبغي عليه القيام به، وما ينبغي عليه الاجتناب منه، والتخلي عنه، قال تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"^(١)، ولذا فرّض الشارعُ تعلّمه على كل مكلف، فقال عليه الصلاة والسلام: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"^(٢)، وجعله أفضل من بقية العبادات، وأحبّ إلى الله من نوافل الطاعات، فقال صلى الله عليه وسلم: "فضل العلم خير من فضل العبادة"^(٣).

قال النووي رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه المجموع: "والحاصل أنهم متفقون - يعني علماء السلف على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح، ونحو ذلك، فإن نوافل الصلاة والصيام والصدقة هذه نفعها لصاحبها فقط، ولكن نفع العلم ينفع صاحبه والمسلمين"^(٤).

(١) الزمر الآية ٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (ح ٢٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وقال المزي والزرکشي: روي من طرق تبلغ رتبة الحسن، وقد جود إسناده السخاوي، وصححه السيوطي. فيض القدير للمناوي ٢٦٧/٤ - ٢٦٨.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (ح ٤١٠٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه، قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، الترغيب والترهيب ١/١١٨.

(٤) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المجموع شرح المذهب ١/٤٢٥ ط دار الفكر بيروت.

ومن هنا فإن الجهل بالعلم الشرعي وأحكامه آفة خطيرة، وبليّة جسيمة، لأنه يحجب عن معرفة الحق، ويُبعد عن سُنن الهدى، ويؤدي إلى الضلال.

وبسبب الجهل بالعلم الشرعي يميل المكلف إلى التشديد والتضييق، والإفراط والتفريط، ويحيد عن مسار الوسطية والاعتدال إلى الغلو والتنطع أحيانا، وإلى التسيّب والتفلّت والتساهل المذموم أحيانا أخرى، ويقع في حبال النفس، وشياطين الإنس والجن، فيفتي بالتحليل والتحریم حسب تصوره وهواه من غير تروٍّ أو تثبّت، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾^(١).

فلا تتحقق الوسطية ولا تقوم إلا بالرجوع إلى العلم الشرعي الذي هو علم نصوص الشريعة بفهم صحيح مأثور عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم، وتلقي هذا العلم عن علماء الشريعة الثقات، وهذه هي الحكمة التي جاء ذكرها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢)، وهذه هي الخيرية التي تضمنه قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"^(٣).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط

(١) النحل الآية ١١٦.

(٢) البقرة الآية ٢٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين (ح ٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسئلة (ح ١٠٣٧) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه.

نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك^(١).

ودراسة المرء للنصوص بتصوره وفهمه بعيدا عن فهم السلف باب من أبواب الضلال، وانحراف عن درب الاعتدال، وخروج من الاتباع إلى الابتداع، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا"^(٢).

(١) بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٥ ط دار الصميعي الرياض، ١٤٠٦هـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (ح ١٠٠)، ومسلم في صحيحه،

كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (ح ٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما.

المبحث الثالث لزوم الجماعة

الأمر بلزوم الجماعة والنهي عن الفرقة أصل من أصول الإسلام العظيمة وقاعدة من قواعد الدين المتينة، إذ به يحصل للمرء الهدى إلى طريق السعادة، والثبات على الصراط المستقيم، والنجاة من الفتن، والحصانة من الانحراف إلى طريق الزيغ والشقاء والضلال.

ولذا أمرنا الله به ورَضِيَه لنا فقال تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، قال ابن عباس رضي الله عنهما لسماك الحنفي: يا حنفي، الجماعة الجماعة، فإنما هلكَت الأُمم الخالية لتفرَّقها، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا"^(٣).

ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن النجاة عند حدوث الفتن، قال: "تَلْزَم جماعة المسلمين وإمامهم"^(٤).

(١) آل عمران الآية ١٠٣.

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٠٥ ط دار الكتب المصرية ١٣٨٤ - ١٩٦٤م.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (ح ١٧١٥).

(٤) وهو جزء من حديث طويل أخرجه البخاري كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح ٣٦٠٦)، ومسلم في صحيحه كتاب الإمامة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (ح ١٨٤٧)، ولفظه "عن حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهليَّةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: نعم، قلتُ: وهل بعد ذلك الشرِّ من خيرٍ؟ قال: نعم،

وقال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فليلزم الجماعة"^(١).
ومن هنا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يحرصون أشد الحرص على الالتزام بالجماعة، ونبذ الفرقة، ويوصون بذلك أتباعه، فكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنهما حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة هو خير مما تستحبون في الفرقة"^(٢).
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة"^(٣).

فالسلامة كل السلامة، والأمان كل الأمان، والرشد كل الرشد في لزوم الجماعة، حيث لا تجتمع الأمة على ضلالة، فمن تمسك بالجماعة نجا واهتدى، ووفق للوسطية الدائرة بين الغلو الموبق والتسيب المهلك.

وفيه دخنٌ»، قُلْتُ: وما دخنه؟ قال: قومٌ يهدون بغير هديي، تعرفُ منهم وتُنكر، قُلْتُ: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: نعم، دُعاةٌ على أبواب جهنم، مَنْ أجابهم إليها قَذَفُوهُ فيها»، قُلْتُ: يا رسول الله! صِفْهُمْ لَنَا، قال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلْتُ: فما تأمُرني إن أدركني ذلك؟ قال: "تَلْزِمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهُم".

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (ح ٢١٦٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أبوبكر محمد بن الحسين الآجري، الشريعة ٢٩/١ ط دار الوطن، الرياض ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الاستقامة ٢٤/١ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ.

خاتمة البحث

المتتبع لنصوص الكتاب والسنة التي تناولت جانب الوسطية في مختلف مناحي الأحكام يُدرك جيداً أن الوسطية من أهم مطالب الشريعة، تتجلى في كل باب من أبواب الدين، وفي كل شعبة من شعب الحياة من العبادة، والدعاء، والإنفاق، والأكل والشرب، والنوم، والعناية بالمظهر، والعلاقة مع الغير، والزواج والطلاق، والمعاملات، والنزاعات، والآداب وغيرها.

وقد حثَّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أُمَّته على الالتزام بها قولاً وفعلاً، وحرص على تطبيقها وتنفيذها في حياته وحياة أصحابه رضي الله تعالى عنهم في جميع الحالات، في المعسر والميسر، والمنشط والمكره، وفي السفر والحضر، وفي الخلوة والجلوة، وفي خاصة نفسه، و بين أهله وأفراد أسرته، ومعارف مجتمعه، فلا يسعد المرء، ولا تسعد الأسرة، ولا يسعد المجتمع، ولا تسعد الدولة إلا بالوسطية التي هي جماع الخير كله، وهذا هو السرُّ في إضمار المفعول به في بيان ثمار الالتزام بالوسطية في قوله عليه الصلاة والسلام: "الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا"^(١)، ليشعر الإضمار العموم والشمول لجميع جوانب النفع والخير.

وقد يسر لي الله سبحانه وتعالى في هذا البحث المتواضع إلقاء الضوء على بعض أهم معالم الوسطية، ومقوماتها مع إيراد نبذة من الجزئيات التي تندرج تحتها، مرتباً إياها على فصلين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل (ح ٦٤٦٣) عن أبي

هريرة رضي الله تعالى عنه.

الأول في بيان معالم الوسطية، منها: الجمع بين متطلبات الروح والجسد، والتوازن في التعامل مع متاع الدنيا، واحتواء التشريعات للثبات والتطور، والمرونة في التعامل مع غير المسلمين.

والثاني في مقومات الوسطية، منها: الاعتصام بالكتاب والسنة، العناية بالعلم الشرعي والرجوع إلى العلماء، ولزوم الجماعة.

ولو درسنا جميع جوانب الوسطية التي تضمنته نصوص الشريعة من الكتاب والسنة، وترجمته سير السلف الصالح في مختلف مراحل حياتهم لوجدنا أن الوسطية يمكن تصنيفها أساساً في كليات جامعة شاملة حسب أبواب الأحكام، وشعب الحياة، تندرج تحت كل كلية جزئيات متعددة متنوعة يتطلب جمعها وبيانها وترتيبها ودراستها صفحات تضم مجلدا ضخماً.

والحقيقة المُرّة التي يجب الاعتراف بها أن مبدأ الوسطية مهضومٌ حقه، مقطوع جناحه في حياة المسلمين المعاصرة على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، حتى عند طلبة العلم والملتزمين منهم، فلا نجد عندهم توازناً بين الترف والزهد، وبين استعمال النعم والتزُّه عنها مع القدرة عليها، وبين الإغداق في راحة البدن و ترويضه على تحمُّل المشاق، وبين الولاء والبراء، وبين الخلاف والاختلاف، ونحو ذلك، بل إن البعض لا يخطر ببالهم أن الوسطية تشمل هذا الجانب أيضاً، وقد أدّى ذلك إلى تناقض في المفاهيم، وتضارب في المعارف، وتلفيق في المناهج، وتفريق في الصفوف، فكان لزاماً على الجهات المعنية إضافة مادة الوسطية والاعتدال في المقررات الدراسية على مختلف مراحل التعليم لما سيكون له من دور فعال بناءً في تمهيد العقول، وتصحيح المفاهيم، وتقويم المعارف، وتقارب

وجهات النظر، واحتواء الخلاف، وتوحيد الصفوف، وتقبُّل النقاش، واحترام الآراء.

وفي ختام هذا البحث أسأل الله تعالى أن يوفقنا للوسطية في كل صغير وكبير من حياتنا، وأن يرزقنا الإخلاص، وأن يبارك لي في هذا الجهد، وأن يضع له القبول والنفع، والحمد لله الذي بعزَّته وجلاله ونعمته تتم الصالحات، وصلى الله تعالى وبارك وسلّم على خير خلقه سيِّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين.

ثبت المراجع

- ١- الاستقامة، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ.
- ٢- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق محي الدين مستو وسمير العطار ويوسف بديوي، ط دار ابن كثير، دمشق ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م
- ٣- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي ط دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- ٤- تهذيب مدارج السالكين شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- ٥- جامع البيان في تأويل آي القرآن المعروف بـ تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري ط مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بالقاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
- ٦- الجامع الصحيح المختصر المسند من أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط الدار السلفية، المدينة المنورة، المطبوع مع فتح الباري
- ٧- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
- ٨- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ط دار السلام بالرياض ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

- ٩- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، ط دار الكتب العلمية بيروت.
- ١١- السنن، أبو داود سليمان بن أشعث السجستاني ط دار إحياء السنة النبوية، القاهرة
- ١٢- السنن، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ط مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- ١٣- السنن، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ط دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- ١٤- السنن، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ط دار الفكر العربي، القاهرة
- ١٥- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتب العامة بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
- ١٦- الشريعة، أبوبكر محمد بن الحسين الآجري، ٢٩/١ ط دار الوطن، الرياض ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٧- الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ط بيت الأفكار الدولية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
- ١٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ط دار المعرفة بيروت
- ١٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤف المناوي ط دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م
- ٢٠- القاموس المحيط، أبوطاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- ٢١- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط دار الكتب العلمية، بيروت 1414 هـ - ١٩٩١ م
- ٢٢- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، ط دار صادر، بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٢٣- المجموع شرح المذهب، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ٤٢٥ / ١ ط دار الفكر بيروت.
- ٢٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأنلسي، ط دار الخير بيروت ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ٢٥- المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ط دار الكتاب العربي، بيروت
- ٢٦- المسند، أحمد بن محمد بن حنبل ط دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م
- ٢٧- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني ط دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥ هـ
- ٢٨- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني، ط دار الفكر بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ٢٩- المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، ط دار أبي حيان سنة ١٩٩٥ م
- ٣٠- الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي ط دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

فهرس الموضوعات

موجز عن البحث	٢٣٦
المقدمة	٢٣٨
المبحث التمهيدي : توضيح معنى الوسطية لغة وشرعا	٢٤١
الفصل الأول : معالم الوسطية	٢٤٤
المبحث الأول : الجمع بين متطلبات الروح والجسد	٢٤٦
المبحث الثاني : التوازن في التعامل مع متاع الدنيا	٢٥٠
المبحث الثالث : احتواء التشريعات للثبات والتطور الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل	٢٥٤
المبحث الرابع : المرونة في التعامل مع غير المسلمين	٢٥٧
الفصل الثاني : مقومات الوسطية	٢٦٤
المبحث الأول : الاعتصام بالكتاب والسنة	٢٦٥
المبحث الثاني : العناية بالعلم الشرعي والرجوع إلى العلماء	٢٦٨
المبحث الثالث : لزوم الجماعة	٢٧١
خاتمة البحث	٢٧٣
ثبت المراجع	٢٧٦
فهرس الموضوعات	٢٧٩